أغرب ما رأيت فى حياتى

للدكتور زكى مبارك

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

كيف أقطع مرجريت ؟

وكيف أدخل البؤس إلى صدر موريس ؟

كيف ؟ كيف ؟

المسألة فى ذاتها هينة ، ولكنها مع ذلك بدت لى فى غاية من التعقيد ، لأن اتصالى بمرجريت كان أثار حول اسمى شبهات أذاعها فريق من أهل الفضول فى باريس ، وأظن — وبعض الظن إثم وبعضه غير إثم — أن ابنة صاحب البيت الذى كنت أقيم فيه كان لها دخل فى إذاعة الشبهات التى آلمتنى فى باريس

كان ناس من المصريين يسألون عنى من حين إلى حين فكانت تلك البنت تلقاهم بابتسامة خبيثة ، ثم تقول : المسيو مبارك رجل لطيف ، فهو لا يُلزم الخدم بترتيب غرفته غير مرة أو مرتين فى الأسبوع !

ومعنى ذلك أنى أبيت ليالى كثيرة فى مكان مجهول

وكان لى مع هذه البنت تاريخ جميل يغريها بأن تُلقى على حقودها حين أغيب

وكان المصريون فى باريس يتعجّبون ويتلومون كلما رأونى ، ويحبون أن يعرفوا أين أقضى أوقات الفراغ

وكانت حجتى حاضرة ، ولكنها لم تكن تُقنع إلا من يريد أن يقتنع . كنت أقول إنى تركت فى مصر خمسة عشر مليوناً وما يهمنى أن أراهم مرة ثانية فى باريس

والواقع أنى أحسنت كل الإحسان فى هذا المسلك ، فلم يكن لى أىّ نفع من تزجية أوقات الفراغ مع المصريين المقيمين فى باريس ، فأكثر كلامنا حين كنا نلتقى لم يكن إلا ثرثرة سخيفة باللغة العربية حول السياسة المصرية ، وربما كنت المصرى الوحيد الذى عاش فى باريس ولم يعرف مكان السفارة المصرية فى باريس

والواقع أيضاً أن صلتى بمرجريت لم يعرفها أحد قبل اليوم غير شخص واحد هو الدكتور أمين بقطر الذى كلفتُه فى إحدى السنين أن يمر على مرجريت ليحدثها عن أشياء لا يمكن أن تكتب فى خطاب ، ومع خطورة هذه المهمة فرّط الدكتور بقطر فى زيارة مرجريت ...

وهكذا يكون الإخوان فى هذا الزمان !

والحاصل — كما يعبر أهل بغداد — أنى كنت أحب أن أتخلص بصفة نهائية من مرجريت ، لأنى كنت أخشى أن أفتضح فى الأندية المصرية ، وتحقّ علىّ لعنة خصومى ، الخصوم الذين كانوا يعرفون كيف يلطخون سمعتى بالسواد بلا تعفف ولا استحياء

كان يجب أن أقطع صلتى بمرجريت ، وهل بقيت بيننا صلة غير مئات الفرنكات التى أجود بها فى كل شهر لأنقذ موريس من الجهل ومن الجوع ؟

كان هذا المرتب ثقيلاً جداً ، وكان إرساله يضيع على فى كل شهر يوماً أو بعض يوم ، وقد اضطرنى مرة إلى أن أصرخ بالفرنسية ! Je m'ennuie

وكنت فى كل مرة أتعرض لمكاره كثيرة من التحليلات النفسية ، كنت أقول إن لى قرابات كثيرة تعانى الضر والبؤس . وهى أولى بكرى إن كنت من الكرماء

وكنت أقول إن مرجريت آوتْ روحى وقلبى خمسة عشر شهراً ، وأمكنتنى من أن أصير أباً كريماً لطفل جميل

وكنت أقول إن لمرجريت فضلاً عظيماً فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية ، المرونة التى أمكنتنى من أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات ، والتى أمكنتنى من أن أصاول هيئة الامتحان بالسوربون ثلاث ساعات ، وذلك مغنمٌ ليس بالقليل

كنت أقول إن مرجريت هى التى عرّفتنى بدقائق الحياة فى باريس

كنت أقول إنى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين إلا بفضل مرجريت

كنت أقول إن مرجريت بكت مرة وأبكتنى يوم زرنا معاً مصانع ستروين ، حين وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد وهى أرق من الزهر وأكثر إشراقاً من الصباح

قالت مرجريت : ما رأيك يا محبوبى فى هذه الفتاة ؟

فتلعثمت

فقالت : قل الحق ، ماذا تدفع من الأموال لحديث ليلة مع هذه الحسناء التي تطرق الحديد ؟

فقلت : وهل هي أجل من مرجريت ؟

فقالت : دع هذا الأدب المصقول وأجبني

فقلت : أقدم حياتي ثمناً للسمر ليلة مع هذه الفتاة

فقالت : وهل تعرف كيف زهدت هذه الفتاة في فتنة باريس لتلهو بطرق الحديد ؟

فقلت : أحب أن أعرف

فقالت : هذه فتاة تستعد لتكون ربة بيت ، فهي تطرق الحديد لتجمع من الأموال ما يمكنها من أن تكون زوجةً لرجل شريف مثل المسيو مبارك

ثم استغرقتْ في البكاء والنشيج

بكيتُ يومئذ لبكاء مرجريت بكيتُ بكاء لو شهدته الملائكة لأضافت اسمي إلى أسماء الشهداء والصدِّيقين

وفي تلك اللحظة جذبتُ يد مرجريت بعنف وقلت : لن نفترق يا مرجريت

فقالت : وكيف ؟

فقلت : سأنقلك إلى مصر ، إن كان لي إلى مصر مَعاد

فقالت : وماذا أصنع في مصر ؟ هل ترانى أصلحُ لمعاونة مَدام مبارك على ترقيع الجوارب ؟

فقلت : إن مَدام مبارك لا ترقِّع الجوارب

فقالت : كيف تقول هذا وأنت أبخل من اليهود ؟!

وضحكنا ضحكاً صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الندى

* * *

ذكريات مرجريت كلها لطيفة ، ولكن يظهر حقاً أن فيَّ شيئاً من أخلاق اليهود ، لأني عانيت في حياتي ما يعاني اليهود ، وهل يبخل اليهود بالطبع ولهم جدٌّ اسمه السموأل ؟

إنما يبخل اليهود بسبب الاضطهاد ، وأنا أبخل بسبب الاضطهاد

كان أجدادي من أغنى أهل المنوفية فحملتهم النخوة العربية على التبذير والإسراف إلى أن صافحوا الإفلاس

فأنا أجمع القرش إلى القرش لأصير من الأغنياء

وهل يتفق هذا مع الإنفاق على امرأة جميلة في باريس ؟

يجب أن أقطع مرتب مرجريت

ولكن كيف ؟

أحب أن أعرف كيف أتخلص من مرجريت

* * *

كانت مرجريت تكتب إليَّ في كل أسبوع خطابين ، وكانت تخاطبني بالكاف ، وكنت أبخل عليها بالمخاطبة بالكاف ، لأني كنت أخشى أن يكون في المخاطبة بالكاف ما يشهد بأني كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية[1]

وكانت مرجريت تتألم من ألا أخاطبها بالكاف وتقول : إن بخلك عليَّ بالمخاطبة بالكاف يوجب أن أخفي رسائلك عن موريس ، وهي كل ما في حياة هذا الطفل المسكين من عزاء .

حرسك الله يا موريس وبارك في حياتك الغالية !

وكانت مرجريت تتحدث في رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر إلا في رسائل العشاق

وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب

وكان هذا يؤذيها أبلغ إيذاء ، فكانت تتهمني بالقسوة والعنف

والله وحده يعلم كيف كنت أسيء الأدب في مراسلة مرجريت ، فأنا أعيش في القاهرة وهي تعيش في باريس ، أنا أحترس تخوفاً من بطش خصومي ، وهي تترسل بلا تخوف لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع

وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالي يحيا في القاهرة بلا ناصر ولا معين ؟

هل تعلم مرجريت أن محبوبها يشتغل بالتدريس وهو عمل تكدره الشبهات ؟

هل تعلم مرجريت أني لا أصلح أبداً لما صلح له فيكتور كوزان الذي كان أعظم أستاذ للفلسفة في باريس ولم يكن له زوجة وإنما كانت له خليلة تحرسه وترعاه ؟

إن مرجريت لا تفهم أني مصريٌّ يعيش في مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس

يجب أن أقطع مرتب مرجريت وأن أتخلص من مرجريت

* * *

وفي أثناء تلك الأزمة النفسية وقع حادث عجيب لم يهتزَّ

(١) المخاطبة بالكاف تعبير عربي أصيل وهو يماثل الـ Tutoiement في الفرنسية

له فى القاهرة قلب غير قلبى ، وقع حادثٌ لا يصدقه أحدٌ فى الشرق ولـكنه زعزع كيانى

وقع حادث لم يعلق عليه كاتب مثل المازنى أو العقاد أو الزيات ، ولم يلتفت إليه مصطفى عبد الرازق ولا منصور فهمى ولا طه حسين ولـكنه زلزل قدمى وهدّ بنيانى

وهل يقع فى الدنيا حادث أغرب وأعجب من أن يجيء المسيو ميللران رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق ليطالب فى المحكمة المختلطة بالقاهرة عن حق إحدى الغوانى بالميراث فى تركة أحد الأمراء ؟

قد أنسى كل شئ ، ولـكنى لا أنسى أنى اعتذرت عن دروسى بالجامعة المصرية لأشهد دفاع المسيو ميللران

وماذا قال المسيو ميللران فى ذلك اليوم ؟

قال إن موكلته امرأة شريفة

وما كاد ينطق بهذه الـكلمة حتى صُعِقتُ ، فقد فهمتُ أن المرأة من حقها أن تحب ، وقد أحبتنى مرجريت فمن حقها أن تطالبنى بالنفقة الشرعية حين تشاء

وماذا أملك حتى تطالبنى مرجريت ؟

أملك سمعتى ، وهى كل شئ ، وبفضل تلك السمعة أتسامى لمنصب الأستاذية فى الجامعة المصرية

وقد آن أن أعترف بالخطر الذى كان يهددنى فى جميع أطوار حياتى ، فأنا رجل من كبار العلماء ، وستمرّ أجيال وأجيال قبل أن يوجد لى فى البحث والاطلاع شبيه أو مثيل[1] ولـكنى وا أسفاه مولعٌ بدرس سرائر النفس الإنسانية . وأغرانى بذلك أنى كنت أول دكتور فى الفلسفة من الجامعة المصرية ، وهذا المعنى هو الذى حملنى على الصراحة فيما أسجّل وأقيّد من الأفكار والمعانى ، وأغلب الظن أنى سأكون أشرف ضحية للدراسات الفلسفية ، ولا يغريني إلا شئ واحد هو الشعور بأنى أنقذ الأدب العربى من كابوس الرياء والنفاق ، ولـكن الأدب العربى يحيا لأموت

والحاصل — مرةً ثانية — أنى عرفتُ وتيقنتُ أنى لا أملك قطع مرتب مرجريت

وهل أستطيع الوقوف بالمحكمة المختلطة بالقاهرة أمام محام ذلق اللسان يطالبنى بحقوق مرجريت ؟

وما هو مبلغ السبعمائة فرنك حتى أهرب من وجه مرجريت ؟

إن أصغر مبلغ أتقاضاه على المقالة الواحدة لا يقل عن جنيهين ، فما الذى يمنع من أن أتفق على مرجريت مما أتقاضاه من مقالاتى فى مثل مجلة الرسالة أو مجلة الهلال ؟

وما الذى يمنع من أن أنقذ سمعتى بمبلغ ضئيل هو مئات من الفرنكات ؟

ولى مع ذلك تعزية صغيرة هى شعور موريس بأن له أباً هو المسيو مبارك الذى استأنف سياحاته فى مصر والشام والعراق

ولى تعزية ثانية هى رسائل مرجريت التى تحدثنى عن غرائب الأشياء فى باريس

ولى تعزية ثالثة هى الشعور بأن لى غرفة فى باريس أدخلها على غير موعد حين أشاء

ولـكنى مع الأسف الموجع كنت أشعر بأنى قد نزلت إلى أسفل دركات الانحطاط ، لأنى كنت أقدم المرتب إلى مرجريت بفضل الخوف لا بفضل الوفاء

وفى صيف سنة ١٩٣٧ كانت لى فرصة لزيارة باريس بمناسبة المعرض ، وكانت مرجريت تلح فى أن أزور ذلك المعرض لأراها وتراني ، وقد شجعنى سعادة الأستاذ محمد المشاوى بك على زيارة المعرض لأكتب عنه مقالة أو مقالتين ، ولـكنى رفضت

رفضتُ فراراً من مرجريت

فماذا صنعت مرجريت ؟

ماذا صنعتْ مرجريت ؟

كتبت خطاباً تقول فيه :

« عزيزى مبارك

يسرنى أن أخبرك أن موريس نال إجازة الدراسة الثانوية وقد وجد عملاً بمكتبة ... بمرتب قدره ثمانمائة فرنك . وبعد أيام سأقف مع المسيو... بكنيسة المادلين لأداء مراسيم الزواج . فأرجوك أن تبقى المبلغ الذى تتفضل به شهرياً ، فقد ينفعك فى تربية أبنائك ، ويهمنى أن تعرف أنك أشرف رجل عرفته فى حياتى ، وأن تثق بأن خطيبى لا يغار منك ، فقد صارحته بكل شىء ، وهو فى غاية الدهشة من أدبك العالى ، وكل ما نرجوه أن ترسل عبد المجيد لنتولى تثقيفه فى باريس »

صديقتك العزيزة جداً

مرجريت

حاشية :

« أنا أقرأ خطاباتك مع زوجى . فهل تقرأ خطاباتى مع زوجتك ؟ »

---

(١) مع الاعتذار لقراء الرسالة عن هذا الاسراف الذى علله الأستاذ الزيات أحسن تعليل